مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد06 العدد02 جوان 2023 ص ص 353ـ379
ر س ع و (ISSN): 2602ـ618X / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

مقاومة محمد الكبلوتي في الشرق الجزائري (1868-1884)

من خلال وثائق الأرشيف

Muhammad al-Kablouti's Resistance in the Algerian East (1868-1884) through archives documents

روابحي العياشي ♦

جامعة باجي مختار-عنابة rouabhi23000@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/02/15 تاريخ القبول: 2023/04/24 تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص باللغة العربية: أعلن الثائر محمد الكبلوتي مقاومته ضد الاحتلال الفرنسي في المناطق الشمالية الشرقية للجزائر سنة 1868، وعندما اندلعت ثورة الصبايحية في نواحي سوق أهراس وعنابة سنة 1871ضم جهوده لثوارها وآزرها ودعمها بكل ما كان يملك من إمكانات. وكان يحتمي بالبلاد التونسية كعادة الثائرين الجزائريين الذين وجدوا فيها كل أشكال الدعم والمساندة من باياتها وحكام أقاليمها. وبسبب ذلك باشرت السلطات الاستعمارية الفرنسية عدة اتصالات مع باي تونس بغرض توقيفه ووضع حد له. فاضطر إلى وقف نشاطه، بعد ذلك فضل الهجرة إلى بلاد المشرق العربي التي مكث فيها ردحا معتبرا من الزمن، ثم عاد خلسة إلى البلاد التونسية، وقد كلفته هذه العودة دخوله السجن الذي بقي فيه إلى أن قضى نحبه سنة 1884.

تحاول هذه الدراسة رصد أخبار مقاومة هذا الثائر انطلاقا من عدة وثائق أرشيفية عثرت عليها في مختلف دور الأرشيف بتونس وفرنسا، وهذا مع الاستئناس والاستعانة ببعض المصادر والدراسات التاريخية التي طرقت هذا الموضوع ضيقا واتساعا.

الكلمات المفتاحية: محمد الكبلوتي؛ البلاد التونسية؛ الاحتلال الفرنسي؛ المقاومة؛ الأرشيف.

Abstract: The revolutionary Muhammad al-Kablouti declared his resistance against the French occupation in the northeastern regions of Algeria in 1868, when the "Spahia Revolution" broke out in the districts of Souk-Ahras and Bône (Annaba) in 1871, he joined his efforts with its revolutionaries. As usual, he took refuge in the

♦ المؤلف المرسل

Tunisian country, in which he found all forms of support from its bays. Because of this, the French colonial authorities initiated several contacts with the Bey of Tunisia to arrest and put an end to him. He was forced to stop his activity, preferring to emigrate to the countries of the East, in which he stayed for a significant period of time. Then, he returned secretly to Tunisia, and that cost him entering the prison in which he died in the year 1884.

This study attempts to collect the news of the resistance of this revolutionary based on several documents found in various archives in Tunisia and France, with reference to some sources that dealt with this topic narrowly and broadly.

Keywords Muhammad al-Kablouti; Tunisia; French occupation; Resistance; Archives.

مقدمة:

تعتبر مقاومة محمد الكبلوتي من أهم المقاومات الوطنية المسلحة التي زعزعت أركان السلطات الاستعمارية الفرنسية على مستوى المناطق الحدودية بالشمال الشرقي للجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي هذه الدراسة نحاول أن نلقي بعض الأضواء عليها انطلاقا من عدة وثائق أرشيفية عثرنا عليها في أرشيف بلدان ما وراء البحار (A.O.M) بمدينة إيكس أون بروفانس الفرنسية، وأرشيف وزارة الحربية الفرنسية (A.M.G)، والأرشيف الوطني التونسي (A.N.T)، بالإضافة إلى بعض وثائق الأرشيف الفرنسي الأخرى التي توجد مصغرات فيلمية منها بالمعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر (I.S.H.T.C)،و هذا مع الاستعانة والاستئناس ببعض الدراسات التاريخية المتعلقة بتاريخ الجزائر الحديث والمعاصر التي طرقت هذا الموضوع.

فكيف ظهرت مقاومة محمد الكبلوتي؟ وما هي ظروفها وأسبابها وخلفياتها؟ كيف كان موقف المستعمر الفرنسي منها؟ لماذا فضل محمد الكبلوتي اللجوء إلى البلاد التونسية والاحتماء بها؟ كيف كان موقف القادة التونسيين منه؟ كيف نظر القادة الفرنسيون إلى نظرائهم التونسيين الذين طبقوا سياسة الباب المفتوح أمامه؟ هل تمكن القادة التونسيون من التوفيق بين نظرتهم إلى هذا الثائر الذي تعاطفوا معه وساعدوه وآووه انطلاقا من مبدأ الأخوة الإسلامية وحسن الجوار وبين إلحاح الفرنسيين الذين كانوا يحكمون سيطرتهم على الجزائر والذين كانوا ينظرون إليه على أنه عدو لهم ومتمرد على سلطتهم، وبالتالي وجب عليهم توقيفه ومنعه من القيام بأي نشاط ثوري ضدهم انطلاقا

من التراب التونسي؟ لماذا هاجر محمد الكبلوتي إلى بلاد المشرق العربي؟ هل هجرته إليها كانت بعد ما ضاقت به أرض تونس؟ ولماذا فضل العودة إليها مجددا؟ وأخيرا كيف كانت نهايته؟ ذلك ما سنحاول تفصيله في هذه الدراسة.

من العسير علينا منهجيا الإجابة على كل هذه التساؤلات وفهم كل هذه الوقائع، إلا إذا وقفنا في البداية على علاقة عائلة الرزقي التي أنجبت محمد الكبلوتي بالإدارة العثمانية ولاسيما علاقتها بالحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة، لأن علاقة الفرنسيين التي نسجوها مع هذه العائلة في بداية الاحتلال كانت متأثرة كثيرا بعلاقة العثمانيين بهم، بل قلدتها في جوانب عديدة. ومن هذا المنطلق ستكون فاتحة كلامنا لهذه الدراسة عبارة عن مدخل نحاول من خلاله تقديم لمحة عن هذه العلاقة التي بدأت متناغمة، ثم انتهت متصدعة، وما انجر عن ذلك من دخول هذه العائلة في خدمة المستعمر الفرنسي إلى غاية عام 1868 تاريخ قيام ثورة محمد الكبلوتي الذي كان أحد زعمائها الكبار.

1.مدخل

ينحدر محمد الكبلوتي بن الطاهر الرزقي من عائلة الرزقي الحناشية التي كانت إحدى العائلات الكبرى في شرق جبال الأوراس بمقاطعة قسنطينة، وقد برزت على المسرح السياسي منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر من خلال سيطرتها على وزارة وكتابة قبيلة الحنانشة، وكان زعيمها حينئذ هو الرزقي بن منصور الذي كانت تربطه علاقة صداقة قوية بالحاج أحمد باي (1826-1848) آخر بايات قسنطينة[1] الذي عينه شيخا على قبيلة الحنانشة بدلا من الشيخ محمد الحسناوي الحناشي الذي كان ينافسه على زعامة هذه القبيلة، ونتيجة لذلك شرع هذا الأخير يتآمر على سلطة الباي ويشاغب عليه ويجري اتصالات مع الفرنسيين للانتقام منه.[2]

وفي مقابل ذلك توطدت علاقة عائلة الرزقي بالحاج أحمد باي ودعمت سلطته ووقفت إلى جانبه بعد سقوط الجزائر تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية عام 1830،

1 L.Charles Féraud, « Les Harar Seigneurs des Hanancha. Études Historiques sur la Province de Constantine », in Revue Africaine n° 18 , Année 1874 , pp 361-364

2 Ernest Mercier, les deux sièges de constantine (1830-1837), imprimerie libraire L. poulet, Constantine, 1896, pp 6,7

وكان زعيمها الشيخ الرزقي بن منصور ضمن قادة وأعيان مقاطعة قسنطينة الذين راسلوا السلطان العثماني عام 1835 وألحوا على إسناد لقب الباشا إلى الحاج أحمد باي.[3]

وفي عام 1836 شن الفرنسيون حملتهم العسكرية الأولى على مدينة قسنطينة انطلاقا من مدينة عنابة قصد إخضاعها، وقد انتهت بالفشل الذريع. ورغم أن الشيخ الرزقي بن منصور تشيع إلى جيش الحاج أحمد باي في الذود على عاصمة البايلك شأنه في ذلك شأن بقية رؤساء معظم القبائل إلا أن الباي امتعض منه وذكر أنه لم يتمكن من تجنيد العدد اللازم من فرسانه، مما جعل مساهمته في الدفاع عن المدينة مساهمة هزيلة وهامشية. وتبعا لذلك اشتاط الباي غيضا وأعطى أوامره بملاحقته وإحضاره إلى قصره بهدف تأديبه، ولم يكتف بذلك بل راسل كاهية الكاف بتونس وطلب منه التعاون معه من أجل القضاء عليه، وعدم استقباله وتوفير الأمن له، وهكذا حوصر الشيخ الرزقي بن منصور الأمر الذي جعله يتصل دون إبطاء بالحاكم العام الفرنسي الجنرال « دامريمون» « Damrémont » ويعرض عليه خدماته، ويتعهد له بتوفير الأمن للجيش الفرنسي بإقليم الحنانشة إذا أراد التوجه إلى مدينة قسنطينة قصد إخضاعها.[4]

و ذكر الضابط الفرنسي « فيرو » « Féraud » أنه أثناء مباشرته لمهامه بالمغرب كان قد تحصل على بعض الوثائق التي تتحدث عن تطور علاقة الشيخ الرزقي بن منصور بالفرنسيين بعد ذلك حيث أكثر هذا الأخير من اتصالاته بالقادة الفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على مدينتي عنابة وقالمة، وكان يمدهم بكل المعلومات المتعلقة بالاستعدادات التي كان يقوم بها الحاج أحمد باي.[5]

غير أن هذا الضابط تحدث عن هذه الوقائع في موضع آخر، وقال بأن الشيخ الرزقي بن منصور لم يكن يتعامل مع الفرنسيين بحسن النية، بل كان يتخابر عليهم لصالح الحاج أحمد باي لأنه كان يجمع أخبارهم وكل تحركاتهم ويرسلها على عجل إلى الحاج أحمد

---

3 Abdeljelil Temimi, le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey 1830-1837, presses de la société tunisienne des arts graphiques Tunis, Tunisie, 1978, voir les pièces justificatives et annexes, document n°9 : lettre en arabe des chefs constantinois et de Hadj Ahmed à la Sublime porte en date du 16 septembre 1835, pp 233-236

4 L.Charles Féraud : op.cit, p 372.

5 L.Charles Féraud : « Notes sur un collection d'autographes arabes de l'ancien ministre de France au Maroc », in Revue Africaine, n° 58, Année 1914, p 102.

باي الذي كان يعد العدة لمواجهتهم، وقد تمكن هذا الأخير نتيجة لذلك من الحصول على معلومات سرية غاية في الدقة والخطورة تتعلق بالمعسكر الذي أقامه الفرنسيون بمنطقة الذرعان قرب مدينة عنابة عام 1836، وعند ما انكشف أمره فر من المعسكر وقصد مدينة قسنطينة.[6]

وبصرف النظر عن صحة أو زيف هذه الأخبار المتعلقة بعلاقة الشيخ الرزقي بن منصور بالحاج أحمد باي، فالثابت أن العلاقة بينهما كانت قد اضطربت بعد ذلك. ففي عام 1837 كان الفرنسيون قد قسموا منطقة عنابة إلى أربع وحدات إدارية أخذت إسم دوائر وهي: دائرة عنابة، دائرة القالة، دائرة الإيدوغ ودائرة قالمة، ووضعوا على رأس كل دائرة حاكما أهليا برتبة قايد.[7]

و في هذا المنظور أقدم الماريشال « فالي » « Valée » على تعيين الشيخ الطاهر نجل الشيخ الرزقي بن منصور على رأس دائرة قالمة برتبة قايد وسلمه طابعا وبرنوس التولية[8] ، ولما كانت هذه الدائرة تضم عددا كبيرا من القبائل يصل إلى 61 قبيلة عام 1843،[9] فقد وجد الفرنسيون أنفسهم مضطرين إلى تقسيمها بهدف التحكم فيها بشكل دقيق، وعليه قاموا بتجزئتها إلى ثلاث وحدات إدارية عام 1850، وهي قيادة الجرفة، وقيادة الناظور، وقيادة بني بولحسن، وأسندوا قيادة الناظور إلى عائلة الرزقي التي كان على رأسها في تلك الأثناء الشيخ أحمد الصالح الرزقي.[10]

و في عام 1856 أنشأ الفرنسيون دائرة سوق أهراس العسكرية، وقسموها إلى خمس قيادات أهلية، وأسندوا معظم هياكلها الإدارية إلى عائلة الرزقي، حيث تم تسمية أحمد بن دحمان الرزقي على قيادة ويلان، وسي إبراهيم بن الحاج الرزقي على أولاد دهياس

6 L.Charles Féraud, « les Harar seigneurs des Hanancha. Études historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 372.
7 Capitaine Maitrot, Bône Militaire, 44 siècles de luttes, Bône, 1912, p 355.
8 L.Charles Féraud, op.cit, p 372
9 Roger Germain, la politique indigène de Bugeaud, Éditions la rose, Paris V, France, 1955, p 235.
10 A.M.G, série H229, Mémoires divers 1844-1889, commandements et chefs indigènes de la province de constantine, année 1850, 1ère subdivision, Constantine, cercle de Guelma.

وأولاد نشية ، وإبراهيم بن مالك الرزقي على أولاد خيار، في حين أسندت قيادة الحنانشة إلى محمد الكبلوتي بن الطاهر الرزقي.[11]

أقدم محمد الكبلوتي على خدمة السلطة الاستعمارية الفرنسية بكل إخلاص على مستوى قيادة الحنانشة التي أسندوها له، وكعادة رؤساء الأهالي، فقد ساهم في خنق كل حركات التمرد والعصيان التي كان سكان الحنانشة يقومون بها، كما ساعد الفرنسيون على جباية الضرائب التي كانوا يفرضونها على السكان، وكانت بداية عمله متميزة ولافتة للانتباه، حيث نال إعجاب الفرنسيين الذين كانوا يحترمونه ويثقون فيه، ويباركون كل عمل يقوم به، غير أنهم سرعان ما قلبوا له ظهر المجن، وأصبحوا ينظرون إليه نظرة الارتياب والشك، ويحترسون من سلوكاته، ليقرروا في نهاية المطاف إزاحته والتخلي عنه مثلما تخلوا عن خدمات عمه أحمد صالح الرزقي الذي كان على رأس قيادة الحنانشة في وقت سابق، وهكذا اتخذوا قرارا بعزله يوم 11 جانفي من عام 1865. [12] فهل ثمة علاقة سببية بين هذا القرار والمقاومة التي أعلنها ضدهم بعد ذلك ؟

2.اندلاع مقاومة محمد الكبلوتي واحتمائه بالبلاد التونسية:

الواقع أن قرار العزل الذي تلقاه محمد الكبلوتي كان له الأثر البالغ على نفسيته وعلى علاقته بالفرنسيين، لأنه نظر إليه على أنه يمثل انتقاصا من شأنه ومساسا بشوكته الأدبية، وتبعا لذلك فقد تخندق في المعسكر المعادي لهم.

و في عام 1868 أعلن الثورة ضدهم بصفة رسمية في منطقة سوق أهراس والجهات الشمالية الشرقية الحدودية، وشكل فصيلا عسكريا من الخيالة وعمل على تنظيمه وتدريبه، ولما ضايقه الفرنسيون لجأ إلى البلاد التونسية طلبا للراحة والتخطيط لمواجهتهم. فوجد الدعم المادي والمساندة المعنوية هناك من لدن القبائل التونسية ولاسيما قبيلة بني شنوف إحدى فروع قبيلة الحنانشة الجزائرية التي زودته بالعتاد الحربي والخيل، وهو الأمر الذي شجعه على شن هجومات مباغتة ضد المصالح الفرنسية وقبائل منطقة سوق أهراس المتحالفة مع الفرنسيين كقبيلة أولاد خيار التي كانت تنتجع بالجهة الشرقية من سوق أهراس، كما وسع من غاراته وهجوماته التي كانت تستهدف الفرنسيين وأعوانهم في المناطق الشرقية الحدودية ما بين القالة شمالا من جهة البحر وتبسة جنوبا على مشارف الصحراء وعضده في ذلك أنصاره التونسيون وخاصة حليفيه السديري

11 A.O.M, série F80. 506, cercle de Souk-Ahras. Résumé historique de l'Année 1856.
12 A.O.M, 6H33, Fiche sur Kablouti ben Taher.

والوشتاتي، وأمام هذه التطورات تحرجت الإدارة الفرنسية وكلفت العقيد « بودي راينو » « Baudet Rynaud » بالقضاء على ثورته فشن العديد من الحملات ضدها إلا أن مجهوداته كلها كان مآلها الفشل .[13]

وفي مطلع عام 1871 اندلعت ثورة الصبايحية في زمالات مجبر والطارف وبوحجار بالشرق الجزائري بسبب رفض المجندين داخل هذه الفرقة الامتثال لقرار تسفيرهم للحرب إلى جانب الجيوش الفرنسية في معاركها ضد الجيوش البروسية. وقد رفض جنود هذه الفرقة المشاركة في هذه الحرب، لأن العقد الذي كان يربطهم بها لم يكن ينص على ذلك، بل كان يلزمهم بمؤازرة الجيش الفرنسي أثناء تصديه لحركات العصيان والتمرد التي كانت تحدث على التراب الجزائري دون سواه.[14] وقد خاطبوا الفرنسيين قائلين: «لقد قبلنا بهذه المهمة السيئة السمعة رغم حالة البؤس التي نعيشها، وقلة الأجور التي نتقضاها، والظلم الذي نواجهه يوميا. وإذا كنا قد قبلنا بالخدمة في مثل هذه الظروف المهينة، فإن هذا القبول مشروط ببقاءنا على أرض الجزائر التي نرفض مبارحتها بأي حال من الأحوال».[15]

وفي تلك الأثناء عمل الفرنسيون على احتواء هذه الوضعية، فاتصلوا بأحمد صالح الرزقي وهو عم محمد الكبلوتي الذي شغل منصب قايد الحنانشة في السابق، وذلك في إطار سياسة التهدئة، وطلبوا منه مساعدتهم على تهدئة خواطر الصبايحية القانطين. وقد غاب عن أذهانهم أنه كان غاضبامنهم لما نزل به جراء تخليهم عن خدماته سابقا، لكنه كان يكظم غضبه ويخفي موجدته وسيف الفرنسيين مسلط على رقبته، بيد أنه لم يتمهل حتى توثب فيه الميل للانتقام، فجمع الصبايحية وعوض أن يحدثهم عن قرار العفو الذي أصدره الحاكم العام في حقهم، ويدعوهم إلى العدول عن العصيان، فقد راح يشجعهم على حمل السلاح ضد فرنسا المنكسرة أمام بروسيا، كما وصف الفرنسيين بأوصاف مقيتة قائلا لهم: «... إنها فرصتكم الذهبية للتخلص من الذل والهوان الذي سلطه عليكم هؤلاء الفرنسيون الأوغاد أبناء الكلاب ! وأعلموا أنهم انكسروا أمام الجيوش البروسية، وأن

13 H’sen Derdour, Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, tome 2, les presses de Dar El Houda, Ain M’lila, Algérie, 2004, pp 435, 436.
14 Charles-André Julien, Histoire de l’Algérie contemporaine. La conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), éditions Casbah, Alger, Algérie, 2005, p 475.
15 A.O.M, 2H60, Rapport du commandant supérieur du Cercle de la Calle, le 27 Janvier 1871.

عاصمتهم باريس سقطت، وأن الجزائر أصبحت خالية من جيوشهم لأنهم قاموا بترحيلها إلى فرنسا من أجل الحرب...» [16]

إن الشيء الذي يهمنا من كل هذه الأحداث هو موقف محمد الكبلوتي منها، والذي كان مقيما بمنطقة ساقية سيدي يوسف في البلاد التونسية. فبمجرد أن بلغته أخبارها سارع إلى الانضمام إلى هذه الحركة التمردية رفقة شقيقه الفضيل، وانضم إليهما كذلك عمه أحمد صالح الرزقي، وبذلك تعاظمت قوة الثورة، وقام الثوار بإضرام النار في مزارع المعمرين في منطقة سوق أهراس، وقتلوا تسعة منهم، ودخلوا مدينة سوق أهراس يوم 26 جانفي من عام 1871، وأحكموا سيطرتهم عليها لمدة ثلاثة أيام كاملة قطعوا خلالها الخطوط الهاتفية التي كانت تربطها بدائرة قالمة، واشتبكوا مع الفرنسيين في معركة دامية بمنطقة عين سنور انتهت بهلاك 15 عنصرا فرنسيا. [17] وبعد نهاية هذه المعركة عاد محمد الكبلوتي رفقة الثوار الصبايحية إلى البلاد التونسية، وكان عددهم يقدر بـ83 عنصرا.[18]

و الحقيقة أن عودتهم إلى هناك كانت قد أثارت حفيظة الفرنسيين وعلى رأسهم قنصلهم العام المعتمد بتونس الذي شعر بالإحباط وخيبة الأمل وراح يتهم المسؤولين التونسيين بأنهم لم يأخذوا على محمل الجد التعهدات التي التزموا بها تجاه الفرنسيين فيما يخص مشاكل الحدود المتعلقة بنزوح القبائل الجزائرية و(المتمردين) على السلطة الفرنسية إلى التراب التونسي، لأنهم بقوا أسرى لعلاقاتهم القديمة التي تربطهم بجيرانهم الجزائريين والتي تقوم على تطبيق سياسة الباب المفتوح أمامهم، ويصرفون النظر عن دخول الثائر الكبلوتي وثوار الصبايحية والحنانشة وأولاد خليفة وسائر العناصر " المشاغبة " إلى بلادهم، وذلك عكس الخطاب الرسمي الذي يتبناه الباي التونسي ووزيره مصطفى خزندار.[19]

16 A.O.M, 2H60, Rapport politique du général Pouget commandant de la subdivision de Bône sur l'insurrection du district de Souk-Ahras en 1871.
17 André Nouschi, Correspondance du docteur A.Vital avec Ismail Urbain (1845- 1874), Paris, France, 1959, pp 316, 317.
18 Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Paris, France, 1891, p 126.
19 I.S.H.T.C, A.O.M, Série 25H, Bobine A26, Carton 25H18 : - Dossier n° 4, lettre du consul général de France à Tunis au gouverneur général de l'Algérie le 24 aout 1871, Folio 166.

و في ضوء هذه التطورات قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بعدة خطوات تستهدف منع محمد الكبلوتي وجماعته من شن هجومات ضد المصالح الفرنسية على مستوى المناطق الحدودية الشرقية للجزائر، وكلفت رئيس القطاع العسكري القسنطيني بتتبع هذه المهمة. وتنفيذا لذلك باشر هذا المسؤول عدة اتصالات مع الرسميين في تونس لتحقيق هذا الغرض. غير أن السلطات التونسيية استجابت استجابة مشوهة لمطلب الفرنسيين، حيث أمر الوزير خير الدين بتجريد محمد الكبلوتي والصبايحية الذين تسللوا إلى التراب التونسي من أسلحتهم، وجلبهم إلى العاصمة تونس غير أن عامل الكاف الذي اشتهر بتعاطفه معهم لم يأخذ الموضوع بصورة جدية واكتفى بابعادهم إلى المناطق الداخلية[20]، وهو الأمر الذي أثار حفيظة المسؤولين الفرنسيين بالجزائر الذين راحوا يلحون على نظرائهم في تونس بضرورة تجريد الكبلوتي وجماعته من فرقة الصبايحية المرافقة له من كل الأسلحة باعتبارهم يشكلون مصدر قلاقل واضطراب لأمن الفرنسيين في مقاطعة قسنطينة.[21]

و كتب القنصل الفرنسي المعتمد في تونس رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر شكاه فيها تجاوزات رجال السلطة التونسية المتعاطفين مع محمد الكبلوتي وجماعته قائلا له: « ... إن القايد السابق الكبلوتي رفقة جماعته المتشكلة من نحو ثمانين فردا يتواجدون الآن في استضافة أولاد بوغانم على التراب التونسي، ورغم أن رجال السلطة التونسية يعلمون بوجودهم هناك، إلا أنهم لم يتجشموا عناء مطاردتهم...»[22]

- Dossier n° 5 : - 1- Lettre du consul général de France à Tunis au commandant en chef à Constantine le 02 fevrier 1871, Folio 177. - 2- Lettre du consul général de France à Tunis au ministre des affaires étrangères, le 10 décembre 1871, Folio 189.

20 A.O.M, 1KK 163, Lettre du général commandant de la division de constantine au général commandant des forces de terre et de mer à Alger, le 11 Fevrier 1871.

21 I.S.H.T.C, A.O.M, Série 25H, Bobine A26, Carton 25H18, Dossier n°4, Lettre du consul de France à Tunis à Mr le vice Amiral Comte De Gueydon gouverneur général civil de l'Algérie à Alger, le 24 Avril 1871, Folio 23.

22 Ibid, lettre du Consul général de France à Tunis à Mr le vice Amiral Comte De Gueydon gouverneur général civil de l'Algérie à Alger, le 24 Avril 1871, Folio 26

بهذا يمكن القول أن محمد الكبلوتي وجماعته كانوا يتمتعون بالراحة وحرية التنقل والتخطيط للثورة على التراب التونسي رغم نداءات المسؤولين التونسيين. وإذا كان بعض الأعوان على مستوى الأقاليم الحدودية قد تجاوبوا ولو ظاهريا مع طلبات الفرنسيين المتعلقة بذلك، فإن خليفة الكاف لم يتحرج من إبداء تعاطفه غير المشروط مع محمد الكبلوتي وجماعة الصبايحية، ولم يكن يكترث البتة بأوامر رؤسائه التي كانت ترده والقاضية بملاحقته.[23] هو الأمر الذي شجع محمد الكبلوتي على المضي قدما في مقاومته ضد الفرنسيين الذين كانوا يتوجسون خيفة منه ويتخذون كل التدابير الاحترازية التي من شأنها أن تجنبهم خطره. وفي هذا الصدد تلقى رئيس بلدية سوق أهراس برقية عاجلة من محافظ قسنطينة في 17 ماي من عام 1871 حذره فيها من مغبة قيام محمد الكبلوتي بهجوم مباغت على المدينة في أقرب الآجال. وتحسبا لذلك نصح هذا المحافظ سكان المدينة باتخاذ الحيطة والحذر، كما قام بتعليق هذه البرقية في الساحات العمومية للمدينة حتى يطلع عليها أكبر عدد ممكن من الجمهور، ونصح المعمرين المقيمين على هامش المدينة بإخلاء مزارعهم واللجوء إلى المدينة. وتنفيذا لذلك أعلنت حملة تطوع لنقل أمتاع ودواب المعمرين شارك فيها جميع السكان بما في ذلك الأهالي الجزائريين.[24]

وفي يوم 19 ماي من عام 1871 أغار محمد الكبلوتي رفقة جماعته وبعض الأنصار التونسيين على منطقة برج فج مروة الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية للجزائر، أين كان يقيم بعض القادة الأهليين المتعاونين مع الفرنسيين، وتمكن من القضاء على خمسة أفراد من فرقة " القوم " التابعة لقبيلة ويلان وقبيلة أولاد خيار وغنم 15 حصانا و25 ثورا.[25]

23 A.O.M, 1KK 163, lettre du général commandant de la division de Constantine au commandant de la subdivision de Bône, le 16 mai 1871.

24 A.O.M, 2H68, rapport de l'administrateur du district de Souk-Ahras au général commandant de la subdivision de Bône, le 17 mai 1871.

25 A.O.M, 36K29, Rapport annuel du cercle de Souk-Ahras pendant l'Année 1871 préparé par le commandant supérieur de Souk-Ahras, lettre du ministre de la guerre au commandant supérieur de forces de terre et de mer en Algérie, le 16 Juin 1871.

و في اليوم الموالي للمعركة أي يوم 20 ماي من عام 1871 رصد محمد الكبلوتي من قبل أحد الأعوان التونسيين في منطقة ساقية سيدي يوسف الحدودية.[26] وبهذا يتراءى لنا أن محمد الكبلوتي كان يفضل أسلوب الهجوم المباغت ثم العودة السريعة إلى التراب التونسي أثناء منازلته للفرنسيين وأعوانهم بالجزائر حتى يتفادى الخسائر في عتاده وجيشه.

و في مطلع شهر جوان من عام 1871 شن محمد الكبلوتي هجوما آخرا مباغتا استهدف المصالح الفرنسية على مستوى المناطق الحدودية، وتمكن خلاله من تجنيد قبيلة وشتاتة وأولاد سديرة في صفه واشتبك مع الجيش الفرنسي في معركة دامية بمنطقة الكدجة انتهت بمقتل أحد الضباط الفرنسيين، وهو الأمر الذي دفع بيوسف بن علي أليقرو وكيل الباي التونسي وقنصل الدولة التونسية بمدينة عنابة الجزائرية إلى التدخل في الموضوع، حيث كتب برقية إلى الوزير التونسي خير الدين طالبه فيها بالإسراع في اتخاذ تدابير ردعية وذات طابع استعجالي ضد محمد الكبلوتي الذي اعتبره عنصرا خطيرا ليس فقط على الفرنسيين، وإنما على مصالح الدولة التونسية كذلك التي ستتضرر جراء سلوكاته الطائشة والعدوانية،[27] وذكر له في برقية أخرى أن الكبلوتي يحتمي في قبيلة وشتاتة التونسية، كما أحاطه علما بأنه سيعمل في القريب العاجل على تشكيل قوة عسكرية ليسير بها لتأديب هذه القبيلة، وطلب منه أن يبذل قصارى جهده ليعلمه بمكان وجود هذا الثائر.[28]

و في تلك الأثناء كثف محمد الكبلوتي من هجوماته على المصالح الفرنسية والأعوان الأهليين المتعاونين معهم، مثل هجومه العنيف الذي شنه على منطقة القالة الحدودية، والذي شاركته فيه سرية من فرسان صبايحية بوحجار يوم 16 جوان من عام 1871. [29] ³كذلك حملته التي شنها على منطقة بوحجار والتي عضدته فيها قبيلة وشتاتة التونسية

---

26 الأرشيف الوطني التونسي، السلسة التاريخية، الحافظة ،212الملف ،240رسالة مصطفى بن قظوم إلى الوزير خير الدين في 22صفر 1288هـ (الموافق ليوم 20ماي من عام 1871م) وثيقة رقم6.

27 Ibid, Télégramme de Youcef Allegro de Bône au ministre dirigeant à Tunis, le 02 Juin 1871, à 10h 10m, n° 10.

28 Ibid, Télégramme de Youcef Allegro de Bône au général Kheiredine à tunis, le 12 Juin 1871, n°8.

29 A.O.M, 20KK45, lettre du général Pouget commandant de la subdivision de Bône au général commandant de la division de Constantine, le 24 Juin 1871.

التي أمدته بـ 200 فارسا، وأغار على عرش الشيابنة، وغنم من سكانه 90 رأسا من الأبقار في 18 جوان من عام 1871.[30]

و نتيجة لهذه الانتصارات، فقد ذاع صيته، ونقل الناس أخباره وأعجبوا به الأمر الذي شجع القبائل الحدودية التي كانت علاقتها هشة وغير متناغمة مع الفرنسيين وأعوانهم على التعاطف معه واعتناق فكرة الثورة والانضمام إليها.[31] بل أكثر من ذلك، فإن هذا التعاطف وجده أيضا لدى بعض قياد البلاد التونسية، ففي تلك الأثناء جهزت القوات العسكرية التونسية حملة عسكرية ضده، وقد طلب من القياد التونسيين المشاركة فيها، غير أنهم رفضوا الانصياع لأوامر مسؤوليهم، وفضلوا عدم المشاركة فيها لأنهم كانوا يكنون احتراما كبيرا للثائر محمد الكبلوتي وجماعته ! [32]

و أمام تعاظم مخاطر هذا الثائر على الفرنسيين وأعوانهم، اقترح وكيل الباي التونسي بعنابة يوسف بن علي أليغرو على الوزير التونسي خير الدين تنظيم حملة عسكرية مزدوجة فرنسية تونسية ضده تقوم بإطباق الحصار عليه من جهة الجزائر وتونس وتضعه بين فكي كماشة، حتى لا يتمكن هذا الثائر الذي وصفه وكيل الباي التونسي بأوصاف غير حميدة من الإفلات، و« ... إتمام غرض الدولتين في التمكن على هاذا (كذا) الكلب (كذا) الكبلوتي ليكون الهناء والعافية في الوطن والأولى المبادرة بقدوم المحلة عما قريب إن شاء الله يكون الظفر به والمؤمل منكم (كذا) أنه يوم بلوغ المحلة للكاف تخبر الهمام سيدي رشيد آغا الكاف يخبرني بالقدوم لملاقات (كذا) المحلة قبل بلوغها الكاف ليوم أو يومين...» [33]

غير أن السلطات التونسية لم تتجاوب مع هذا الطلب، ولم تتجشم عناء الرد عليه كما يفهم من سياق الأحداث الأمر الذي أجبر وكيل الباي على التنقل إلى دائرة سوق

30 A.N.T, op.cit, Télégramme Youcef Allegro de Bône au général Kheiredine à Tunis le 19 juin 1871, n°9.
31 A.O.M, 20KK45, op.cit
32 A.O.M, 6H33, Télégramme du chargé d'affaires français à Tunis à Mr le gouverneur général à Alger, le 02 octobre 1871.
33الأرشيف الوطني التونسي، المصدر السابق، رسالة يوسف بن علي اليغرو إلى الوزير خير الدين في 4 ربيع الثانية 1288هـ (الموافق ليوم 23جويلية من عام 1871م،) وثيقة رقم14. ينظر الملحق رقم1

أهراس وتقديم طلب آخر إلى المسؤولين التونسيين التمس فيه السماح له بالتوغل داخل إقليم الكاف لتأديب هذا الثائر.[34]

من المتصور أن إلحاح المسؤولين الفرنسيين على نظرائهم التونسيين بضرورة لجم نشاط هذا الثائر وتوقيفه، قد أدى في النهاية إلى اقتناعهم بذلك، وهو الأمر الذي يفسر الحملات المتكررة التي باشرها حكام الأقاليم الغربية التونسية ضده، والتي أفضت إلى كبحه ووضع حد لنشاطه يوم 30 سبتمبر من عام 1871 أين تقدم إلى إحدى المراكز العسكرية التونسية رفقة عدد كبير من فرسان الصبايحية المدججين بالأسلحة[35]، بعد ذلك شرع في تجريدهم من الأسلحة التي أودعوها لدى المكلف بالأعمال الفرنسي بالقنصلية الفرنسية بتونس، وعلى إثر ذلك تقدم الفرنسيون بطلب رسمي إلى الباي التونسي ألحوا فيه على تسليمهم محمد الكبلوتي.[36]

غير أنه لم يتجاوب معهم وأوهمهم بأنه سيرسله إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج بهدف تلافي خطره، وهذا ما أشارت إليه رسالة وزير خارجية فرنسا التي كتبها إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر في تلك الأثناء والتي أكد له فيها أن «... قضية الكبلوتي انتهت، وأنه يتأهب للسفر إلى مكة لأداء فريضة الحج...»[37]

في مقابل ذلك أصدر الباي التونسي أمرا يقضي بعدم طرده رفقة جماعته من فرسان الصبايحية، كما أوصى بحسن معاملتهم والاعتناء بهم، وتوطينهم بالمناطق الحدودية، والسماح لهم بالاندماج في مختلف القبائل والأعراش ولاسيما أعراش قبيلة دريد، وهكذا تلقى أعوان الباي على مستوى الجهات الغربية أمرا يقضي بإسعافهم و«... تقسيم الصبايس (كذا) جماعة الكبلوتي إلى أربعة أقسام كل قسم يكون مع عرش من عروش دريد الأربعة

34 Ibid, Télégramme de Youcef Allegro de Souk-Ahras à Mr le ministre dirigeant à Tunis, le 19 Septembre 1871, n° 15.
35 A.O.M, 6H33, Télégramme du chargé d'affaires français à Tunis au gouverneur général à Alger le 02 Octobre 1871.
36 Ibid, lettre du gouverneur général d'Algérie à Alger au chargé d'affaires français à Tunis le 24 Octobre 1871.
37 I.S.H.T.C, A.O.M, Série 25H, Bobine A26, Carton 25H18, Dossier n°5, lettre du ministre des affaires étrangères à Mr l'Amiral =Comte de Gueydon, gouverneur général civil de l'Algérie à Alger, le 20 Décembre 1871, Folio 185.

والتحذير عليه (كذا) بأن يرجع منهم من الناحية الغربية ويسعي الفساد مع الأجانب ورد البال (كذا) من أن يرجع ويجتمع مع بعضهم بعد القسمة المذكورة...»[38]

وتبعا لذلك تم توزيعهم على عروش قبيلة دريد الأربعة وهم عرش شيخ بن زرق واستقبل سبعة عشر عائلة، وعرش شيخ أولاد جوين واستقبل ستة عشر عائلة، وعرش أولاد مناع واستقبل خمسة عشر عائلة، وعرش شيخ أولاد عرفة وقد استقبل هو الآخر خمسة عشر عائلة.[39]

وأشارت رسالة أحد أعوان الباي وهو الطيب بن البراني التي أرسلها إلى الوزير خير الدين إلى ما يفيد بأن الباي التونسي كان رحيما مع هؤلاء اللاجئين، حيث اتخذ قرارا يقضي بضرورة تمكينهم من المأكل والملبس ومختلف المستلزمات مع الحرص على توفير كل أسباب الراحة والأمن لهم.[40]

كان محمد الكبلوتي كعادة الثائرين الجزائريين حينئذ يحارب أعداءه الفرنسيين بمجهوداته الفردية، كما كان يحاربهم بالتعاون والتنسيق مع أطراف أخرى تقاسمه الهدف نفسه، فيتحالف معهم ويسير في ظلهم. وعلى هذا الأساس فقد انضم إلى الثوار المقرانيين الذين انفضوا من حول المستعمر الفرنسي في 16 مارس من عام 1871، وشارك بقوة في أحداث ثورتهم[41] ، ولم يتمكن الفرنسيون من إلقاء القبض عليه، فواصل نشاطه الثوري على مستوى المناطق الشمالية الشرقية الحدودية معتمدا أسلوب الكر والفر أثناء مواجهته لهم، وغالبا ما كان يحتمي بالتراب التونسي كلما حاول الفرنسيون محاصرته، الأمر الذي أثار حفيظة الفرنسيين الذين كانوا يمارسون ضغوطا كبيرة على نظرائهم في تونس بسبب ذلك. ويتضح من خلال بعض الوثائق المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي أن الجهات الأمنية التونسية كانت قد أصدرت في تلك الأثناء أوامر إلى مختلف أعوانها بالجهات لملاحقته وتوقيفه، فباشروا عملية البحث عنه. وفي شهر ماي من عام 1871 راسل البعض منهم الوزير خير الدين وأحاطوه علما برجوعه إلى منطقة بوشبكة بالشمال الشرقي

38الأرشيف الوطني التونسي، المصدر السابق، رسالة أحمد عبده ابن احميدة إلى الوزير خير الدين في 12شوال المبارك 1288هـ (الموافق لشهر جانفي من عام 1871م،) وثيقة رقم.17

39 المصدر نفسه، ملحق رسالة أحمد عبده بن احميدة إلى الوزير خير الدين في 12شوال المبارك 1288 هـ (الموافق لشهر جانفي من عام 1872م)، وثيقة رقم18. (ينظر الملحق رقم2)

40 المصدر نفسه، رسالة الطيب بن البراني إلى الوزير خير الدين في 12شوال المبارك1288 الموافق لشهر جانفي من عام 1872م،) وثيقة رقم19.)

41 Mouloud Gaid, Mokrani, Éditions Andalouses, Alger, Algérie, 1993, p 108.

الجزائري أين انتظره حشد كبير من أنصاره من سكان النمامشة المتشيعين لقضيته[42]، وطمأنه المدعو مصطفى بن قظوم من خلال رسالة حدثه فيها حول مشاكل محمد الكبلوتي وسكان النمامشة والاستعدادات الكبرى التي يقوم بها من أجل وضع حد لنشاطه مؤكدا له بأنه رفقة أعوانه «... واقفين على ساق الجد في ما يجلب الخاو (كذا) بين الجانبين وعدم مد اليد في تلك الناحية، والذي يريد الدخول من الناحية الغربية إلى المملكة التونسية حفظها الله من كل بلى (كذا) نصرف عنايتنا فيه كما أذنتنا...»[43]

و رغم ذلك بقي محمد الكبلوتي ثابتا على نهجه الثوري، وكان على تواصل دائم مع الثوار المقرانيين في الجزائر الذين كان يدعمهم ويشاركهم في مختلف المعارك التي كانوا يخوضونها ضد الجيوش الفرنسية لاسيما في المناطق الشمالية الشرقية من الجزائر، وهي كلها مناطق قريبة من مجال نشاطه الثوري، وقد أبلى بلاءا حسنا في معركة 24 جوان من عام 1871، ومعركة 30 أوت من عام 1871، وفقد في المعركة الأخيرة شقيقه الفضيل.[44]

و تشير وثائق الأرشيف الوطني التونسي إلى أن محمد الكبلوتي قرر الهجرة إلى طرابلس الغرب إثر هذه الأحداث، لكي يصرف الأنظار عنه، بعد ذلك عاد خلسة إلى منطقة الكاف بالشمال الغربي التونسي، غير أن عيون أعوان الدولة التونسية رصدته، وكتب أمير اللواء مراد عامل دريد رسالة إلى الوزير خيرالدين ضمنها كل أخباره مؤكدا له: «... أنه بلغنا خبر من الكاف ووطنها خبر محقق هو أن الكبلوتي توجه إلى بلد طرابلس ومن هناك أتى إلى وطننا وأتى إلى خيمته خفية، ولما صار بها يختفي بالنهار ويأتيها ليلا ولما بلغنا ذلك اجتهدنا في البحث عن ذلك كل الاجتهاد باذلين جهدنا في ذلك لعلنا نضفر به ووجهنا من طرفنا الأجل المرعى (كذا) سي الطيب بن الحاج البراني شيخ أولاد جوين إلى بلد الكاف والفحص عنه وثبوت ذلك. ولما ذهب إلى هناك وتجسس عن ذلك وجد هذا الخبر شائعا ذائعا عند الخاص والعام من الأعلى إلى الأدنى لكن من غير ثبوت وقدم إلينا وأخبرنا بذلك حتى أنه تناهى خبره وبلغ إلى الهمام والأفخم أمير الأمراء ساكر

---

42 الأرشيف الوطني التونسي، المصدر السابق، رسالة عبد الله بن التليلي وآخرون إلى الوزير خير الدين في شهر صفر من عام 1288هـ وثيقة رقم5.

43 المصدر نفسه، رسالة مصطفى بن قظوم إلى الوزير خير الدين في 2صفر الخير سنة 1288هـ، وثيقة رقم7.

44 Louis Rinn, op.cit, pp 614-616.

الخيالة سيدي رشيد عامل الكاف ولكن المراد منك أنك تصرفنا بأنه إن ثبت ذلك وضفرنا به ما يكون وجه العمل فيه ونحن لا زلنا مجتهدين في البحث والفحص عنه...»[45]

كما طمأنه في رسالة أخرى بأنه يعلم بكل تحركاته، وأن كل المعلومات المتعلقة به ترده أولا بأول وأنه «... قدم إلى محله بالكريب وأنه يختفي بالنهار ويأتي إلى منزله بالليل...»[46]

هكذا يتبين لنا أن الفرنسيين لم يتمكنوا من القضاء على مقاومة محمد الكبلوتي التي أعلنها ضدهم عام 1868، خاصة بعد احتمائه بالبلاد التونسية. ورغم التدابير المنتهجة ضده بهدف لجمه سواء في الجزائر أو في تونس، فقد بقي متمسكا بنهجه الثوري، ولم يجنح إلى خيار الاستسلام وطلب الأمان. وقد حتم عليه هذا الموقف المستميت الهجرة إلى المناطق البعيدة كما سنعرف لاحقا، وهذا بعدما ضاقت به أرض الجزائر وتونس بما رحبت، فاقتنع بأنه لا مندوحة له إلا السفر إلى بلاد المشرق العربي عله يجد فيها متسعا من الراحة والاطمئنان.

3.هجرة محمد الكبلوتي إلى المشرق العربي:

من الجائز القول أن الثائر محمد الكبلوتي كان يشعر بالحرج نتيجة للمضايقات التي كانت تطاله كما عرفنا، وهو أمر طبيعي مفترض لا يمكن تصور عكسه، وعليه فقد قرر الهجرة إلى بلاد المشرق العربي. ولسنا في حاجة إلى التذكير في هذا السياق بأن هذه البلاد كانت أيضا وجهة الجزائريين الفارين من بطش وعسف المستعمر الفرنسي، ذلك أن سحر المشرق العربي وجاذبيته كانت دائما عالقة في أذهانهم منذ عهود قديمة تعود إلى فجر الإسلام، لأنه يذكرهم بمكة والمدينة وبغداد ودمشق والقاهرة والأزهر واسطنبول والقدس، وهي كلها مدن وعواصم لها مكانتها الروحية والحضارية في قلوبهم وقلوب المسلمين بصفة عامة.

45الأرشيف الوطني التونسي المصدر السابق، رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد إلى الوزير خير الدين في 25جمادى الأولى سنة 1289هـ (الموافق للفاتح من أغسطس من عام 1872م،) وثيقة رقم20 (ينظر الملحق رقم 3).

46 المصدر نفسه، رسالة أمير الأمراء مراد عامل دريد وأولاد سيدي عبيد إلى الوزير خير الدين في 30 جمادى الأولى 1289هـ (الموافق لـ 05أغسطس من عام 1872م) ، وثيقة رقم21.

فما هي الترتيبات التي باشرها محمد الكبلوتي في البلاد التونسية قبل أن يسافر إلى هناك ؟ هل طاب له المقام واستقر هناك بصفة نهائية أم أنه بقي يتتبع بشغف كبير أخبار بلاده الجزائر التي تئن تحت وطأة المستعمر الفرنسي، والبلاد التونسية التي آوته، ويتحرق شوقا للعودة إليهما ؟ ما هي المصاعب التي واجهته هناك ؟ وكيف تعامل معها ؟

تشير إحدى وثائق الأرشيف الوطني التونسي إلى أن محمد الكبلوتي كان قد اتصل بالوزير التونسي مصطفى خزندار قبل أن يقدم على هذه الخطوة، والتمس منه أن يطلب من نجله سيدي محمد أن يشمل أفراد عائلته بالرعاية اللازمة، حيث كتب له رسالة جاء فيها أنه: « متوجه إلى الشام بحول الله وقوته وأولادي وإخواني راهم محاجير (كذا) إلى المعظم الأرفع الأمثل الأكمل قرة عنيك وثمرة فؤادك إبنك سيدي محمد دام الله وجوده لنا ولك بجاه سيد الأولين والآخرين »[47]

و ما أن وطأت أقدامه أرض سوريا حتى بلغته أخبارا تفيد أن الأمير عبد القادر الذي استقر هناك كان قد توسط للثوار المقرانيين الذين هاجروا إلى البلاد التونسية لدى بايات تونس من أجل إسعافهم والحصول على إذن للاستقرار هناك، فاتصل بالأمير عبد القادر والتمس منه التدخل لصالحه، فوافق على ذلك دون تمهل، وكتب خطابا إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار قال له فيه أن: «... القائد الكبلوتي كان حضر لطرفنا منذ شهور وهو الآن عندنا يطلب شفاعتنا، فالمرجو من المقام الأسمى والجناب الأسن أن يلحقه بهم في الإذن والسكن ويشمله معهم ومن يلوذ به بما يفضيه من المكارم والمنن لازلت حضرته تقلد أعناق الرجال بقلائد نعمها وتديح رياض الآمال بهواطل سحب كرمها وأنتم أبقاكم الله ومتع المسلمين بطول ارتقائكم حيث أنه لم تزل عينكم في اكتساب المحامد ممتنعة السنات وصحيفة محياكم كلها قربات وحسنات فلا نشك في رد الجواب بطلق سراح هذا المأسور من يد الاغتراب والله تعالى يشكر مساعيكم الحميدة وعوائد نفعك الفريد بمنه وكرمه...»[48]

---

47 المصدر نفسه، رسالة محمد الكبلوتي بن الطاهر الرزقي إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار في 26جمادى الثانية 1289هـ (الموافق لشهر سبتمبر من عام 1872م،) وثيقة رقم24.

48 الأرشيف الوطني التونسي، الحافظة ،78الملف ،929رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار، في 2محرم سنة 1290هـ (الموافق لـ 02مارس 1873م،) وثيقة رقم63.

غير أن الوزير التونسي اعتذر على تلبية طلب الأمير عبد القادر، وسجل في ذيل ذلك الخطاب الذي أرسله له العبارة الآتية: «... يجاب بما يناسب وأن الكبلوتي منعت من الإجابة لطلبه موانع سياسية...»[49]

بماذا نفسر عدم تجاوب الوزير التونسي مصطفى خزندار مع طلب الأمير عبد القادر الذي كانت تربطه بالرسميين التونسيين علاقة ود وتقدير ؟ وما هي الموانع السياسية التي تحدث عنها الوزير مصطفى خزندار في معرض تبريره لقرار المنع ؟

يبدو أن موقف السلطات التونسية غير المتناغم مع التماس الأمير عبد القادر كان نتيجة الضغوطات التي كان يمارسها عليهم الرسميين الفرنسيين في الجزائر وفرنسا في تلك الأثناء والذين كانوا كما علمنا فيما مضى كثيري الشكوى والتبرم من سلوكات الرسميين التونسيين ولاسيما أعوان الباي على مستوى الحدود الغربية عندما انتهجوا سياسة الباب المفتوح تجاه الثائرين الجزائريين وتعاطفوا معهم وغضوا الطرف عن مزالقهم وسائر القلاقل التي كانوا يتسببون فيها.

رغم ذلك لم يفقد محمد الكبلوتي الأمل في العودة إلى البلاد التونسية، فواصل مساعيه الحثيثة لبلوغ هذا الهدف وطرق كل الأبواب التي يمكن أن تحقق له ذلك فسافر إلى الأستانة، واتصل بالصدر الأعظم محمد رشدي باشا، والتمس منه الوساطة ، فتدخل هذا الأخير، وكتب خطابا إلى باي تونس عام 1874 حدثه فيه بالقول: «... كنا كاتبنا جنابكم العالي بمكتوب مؤرخ في 16 جمادى الأولى سنة 1290 في الوصية برد البال من مهاجري الجزائر الذين انتقلوا منها إلى ولايتكم الجليلة وكنا بينا به أسماء بعض كبرائهم منهم الشيخ الكبلوتي وفي هذه المدة ورد للباب العالي عرض ممضى من الكبلوتي بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه أنه بعد أن حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمساعفة اللائقة للتوطن بولايتكم الجليلة تحت حماية دولتهم أمرتموه بالرحول منها إلى مكان آخر بموجب طلب قنصل فرنسا...» [50]

و يبدو أن هذه الوساطة أفضت إلى موافقة السلطات التونسية على هذا الالتماس، الأمر الذي يفسر عودته إلى البلاد التونسية بعد ذلك، إلا أن مدة إقامته بها كانت قصيرة

49المصدر نفسه، الوثيقة نفسها.

50 الأرشيف الوطني التونسي، الحافظة ،212الملف ،240رسالة الصدر الأعظم رشدي باشا إلى باي تونس في 26ذي القعدة1290) الموافق لشهر جانفي من عام 1874م)، وثيقة رقم28.(ينظر الملحق رقم4)

حيث أرغمه الباي مرة أخرى على الرحيل. وذكر "رين" " Rinn" العليم بأخبار ثورة المقراني وكل الثائرين المنتصرين لها أنه ركب البحر على متن باخرة رفقة الثائر الناصر بن شهرة في 02 جويلية من عام 1875 وقد انطلقت من ميناء حلق الوادي باتجاه ميناء بيروت بلبنان[51]، غير أن هناك تقرير فرنسي يقول بأنهما توجها إلى مالطا بنية عدم العودة نهائيا إلى البلاد التونسية[52]. كما أشار تقرير فرنسي آخر إلى أن محمد الكبلوتي كان قد توجه بمفرده إلى بيروت، ولم يطب له المقام هناك، فسافر إلى مدينة بروسة التركية، ثم عاد بصورة سرية إلى طرابلس الغرب عام 1877.[53]

وفي تلك الأثناء كانت أخباره تتداول بين المسؤولين الفرنسيين في الجزائر فأرسلوا تعليمات إلى أعوانهم على مستوى بعض المدن الجزائرية مثل عنابة، وقسنطينة وباتنة عام 1879 حذرتهم من إمكانية عودة محمد الكبلوتي إلى الجزائر، وأشارت هذه التعليمات صراحة إلى احتمائه بطرابلس الغرب، كما تحدثت عن إمكانية قيامه بتأليب سكان إفريقيا الشمالية ضد الوجود الفرنسي. وقد استقى الفرنسيون هذه المعلومات من قنصلهم المعتمد بطرابلس الغرب الذي كان يقتفي أثره ويتتبع أخباره باهتمام كبير.[54]

على إثر ذلك تدخلت فرنسا عن طريق مصالحها القنصلية وطلبت من القائم بأعمالها باسطنبول التحرك دون إبطاء لإعادة محمد الكبلوتي إلى التراب التركي.[55] وتبعا لذلك تم نقله إلى تركيا وحكم عليه بالسجن في مدينة بروسة، إلا أنه لم يقبع فيه كثيرا حيث أطلق سراحه، فعاد من جديد إلى طرابلس الغرب، وشرع يراسل رجال الدولة التونسية وعلى رأسهم الوزير خير الدين الذي أعلمه بوجوده هناك ملتمسا منه السماح له

51 Louis Rinn, op.cit, p 623.
52 I.S.H.T.C, Archives du ministère des relations extérieures, Paris, France, affaires diverses politiques, dossier unique, bobine 520, lettre anonyme de Versaille, le 19 Juin 1875, Folio 538.
53 A.O.M, 6H33, dossier n° 3, subdivision de Bône, renseignements sur ex Caîd des Hanancha Kablouti Ben Tahar, le 09 Mai 1879.
54 Ibid, circulaire du gouvernement général civil de l'Algérie, le 10 Juin 1879.
55 Ibid, circulaire du gouvernement général civil de l'Algérie, le 10 Juin 1879.

بالعودة مجددا إلى البلاد التونسية،[56] بيد أن الوزير التونسي رفض ذلك كما يفهم من سياق الأحداث.

4.نهاية محمد الكبلوتي:

ذكر محمد السنوسي صاحب الرحلة الحجازية الذي عاصر محمد الكبلوتي، وكان ضمن الذين شاركوا في تشييع جنازته إلى مثواه الأخير، أن هذا الثائر دخل بعد كل هذه الأحداث خلسة إلى البلاد التونسية، واستقر في ضيافة سكان جلاص دون أن يعرف بنفسه ويكشف عن هويته، غير أن خليفة الباي تمكن من التعرف عليه واكتشاف أمره، فأوقفه وسلمه إلى الوزير مصطفى بن اسماعيل الذي أعطى أمرا بسجنه في داموس مظلم بحلق الوادي. وبعد انتصاب الحماية الاستعمارية الفرنسية على تونس عام 1881، طلب الفرنسيون من الباي أن يسلمهم هذا الثائر، إلا أنه رفض ذلك وفضل إبقاءه في زنزانته حيث الرطوبة العالية والظلام الدامس، مما أدى إلى انهيار قواه وتدهور أحواله الصحية[57] ، فتدخل نجله محمد وأجرى اتصالات مع المسؤولين الكبار في الدولة التونسية وعلى رأسهم الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور الذي حدثه عن والده السقيم، ملتمسا منه يد المساعدة والتدخل الإنساني العاجل من أجل نقله إلى المستشفى لتلقي العلاج «... لعل الله يرسل شفاءه على يده وإن قرر الله بالموت فإنه يرحمه والسلام...»[58]

ويضيف محمد السنوسي أن رجال السلطة التونسية استجابوا لهذا الطلب وأعطوا أوامرهم بنقله إلى مستشفى الصادقي بتونس خلال شهر شعبان من سنة 1300 هـ (1883م)، ومكث فيه برهة من الزمن إلى أن قضى نحبه ليلة الأربعاء 6 جمادى الثانية سنة 1301 هـ (1884م)، ودفن بمقبرة الجلاز بالعاصمة تونس.[59]

على هذه الشاكلة كانت نهاية هذا الثائر، وهي فعلا نهاية مأساوية ومؤثرة، فقد حارب الفرنسيين، وشغل بال ساستهم، وفرض عليه هذا الموقف الثابت الهجرة والتهجير

---

56 الأرشيف الوطني التونسي، المصدر السابق، رسالة محمد الكبلوتي إلى الوزير خير الدين، في شهر شعبان 1292هـ (الموافق لشهر سبتمبر من عام 1875م)، وثيقة رقم30 .

57 محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، الجزء الثالث، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 198.

58 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الحافظة ،185الملف 1050مكرر، رسالة محمد بن الكبلوتي إلى الوزير التونسي الأكبر محمد العزيز بوعتور، وهي وثيقة واحدة مترجمة إلى اللغة الفرنسية ومؤرخة في شهر جمادي الأولى من سنة 1300هـ (الموافق لعام 1882م).

59محمد السنوسي، المصدر السابق، ص198.

والمطاردة والتنقل إلى المناطق البعيدة، والدخول إلى السجون والعيش في الخفاء بعيدا عن الأنظار، وقد قضى نحبه بعيدا عن وطنه الجزائر الذي حارب من أجل استقلاله وحريته.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة يمكننا أن نخلص إلى عدة نتائج نوجزها فيما يلي:

-لا يمكن في نظرنا فهم ودراسة موقف محمد الكبلوتي وعائلته بصفة عامة من المستعمر الفرنسي فهما دقيقا وشاملا، إلا إذا استحضرنا السياق التاريخي الذي جرت فيه أحداث مقاومته. والذي تميز بمرونة الولاءات التي كانت تتحكم فيها الاعتبارات المصلحية العائلية، بل حتى العشائرية والقبيلة، والتي كانت في الغالب الأعم على حساب المصالح الوطنية والقومية. وعليه فإن ميل محمد الكبلوتي وعائلته إلى المستعمر الفرنسي في البداية، ثم إعلانه الثورة ضده في النهاية لا بد من تفسيره وفقا لهذه الاعتبارات. وقد أدرك الفرنسيون هذه المعطيات، واستغلوها ووظفوها في مشروعهم الاستعماري.

-اتخذ محمد الكبلوتي من البلاد التونسية مكانا للراحة والتخطيط من أجل مقاومة المستعمر الفرنسي، ولم يكن هذا الثائر وحده من يختار هذه البلاد للفكاك من جور وعسف المستعمر، بل عضده في ذلك العديد من رجال المقاومة الوطنية المسلحة الذين ثاروا ضد المستعمر خلال القرن التاسع عشر.

-كان تصرف بايات تونس وأعوانهم على مستوى الأقاليم الغربية تجاه محمد الكبلوتي وجماعته تصرفا إنسانيا رصينا، فقد عملوا كل ما في وسعهم على تقديم يد المساعدة له ولجماعته، وتستروا عنه رغم إلحاح القادة الفرنسيين عبر مختلف القنوات الرسمية.

-لم تكن مقاومة محمد الكبلوتي مقاومة منفصلة عن سائر الحركات الثورية التي واجهت المستعمر الفرنسي خلال القرن 19، بل كانت متصلة بها اتصالا عميقا، وليس أدل على ذلك من أنه كان ينسق عمله الثوري مع الثوار المقرانيين الذين انفضوا من حول السلطة الاستعمارية الفرنسية عام 1871، وكان كذلك على صلة مع الثائر الناصر بن شهرة وغيرهما من الثوار الجزائريين، مما يدل على أن الحركات الثورية التي واجهت المستعمر الفرنسي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، كانت كلها حركات متصلة ومرتبطة ببعضها البعض، وأن هدفها كان هدفا واحدا وهو تحرير الجزائر من المستعمر الفرنسي.

الملاحق

الملحق رقم 1 [60]: رسالة وكيل الباي التونسي بمدينة عنابة يوسف بن علي أليغرو إلى الوزير التونسي خير الدين في 4 ربيع الثانية 1288 هـ (25 جويلية 1871)، التي اقترح فيها تنظيم حملة مزدوجة فرنسية تونسية ضد محمد الكبلوتي.

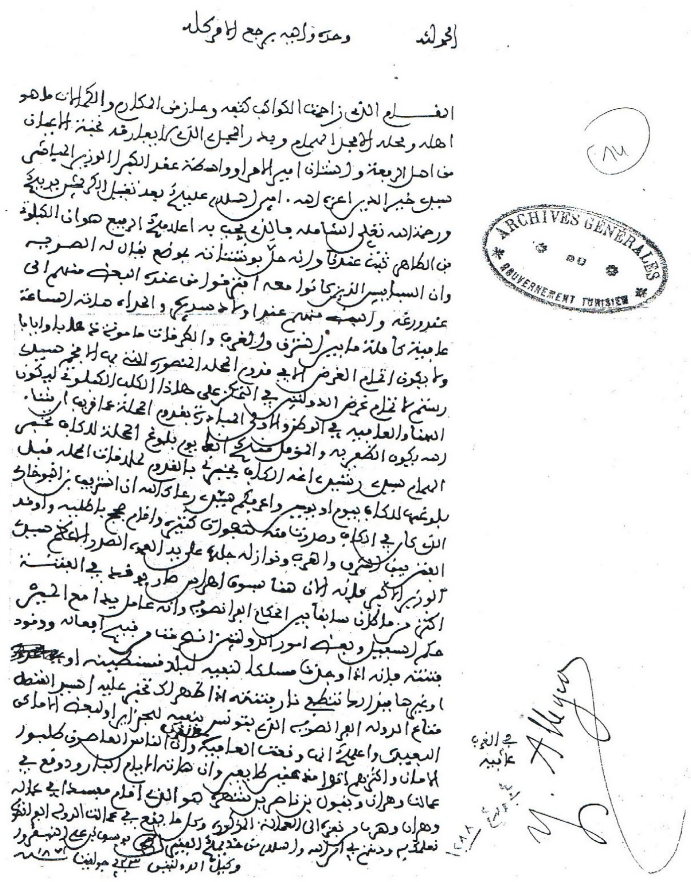

60 الأرشيف الوطني التونسي، السلسة التاريخية، الحافظة 212، الملف 240، الوثيقة رقم 14.

الملحق رقم 2 [61]: ملحق رسالة أحمد عبده بن حميدة إلى الوزير خير الدين في 12 شوال 1288 هـ (جانفي 1872)، ويتضمن توزيع فرسان الصبايحية على أعراش قبيلة دريد الأربعة.

61 الأرشيف الوطني التونسي، السلسة التاريخية، الحافظة 212، الملف 240، الوثيقة رقم 18.

الملحق رقم 3 [62]: رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد إلى الوزير خير الدين في 22 جمادى الأولى سنة 1289 هـ (الفاتح أغسطس 1872) حول عودة محمد الكبلوتي من طرابلس الغرب واحتمائه بمنطقة الكاف.

62 الأرشيف الوطني التونسي، السلسة التاريخية، الحافظة 212، الملف 240، الوثيقة رقم 20.

الملحق رقم 4 [63] : رسالة الصدر الأعظم رشدي باشا إلى باي تونس في 26 ذي القعدة 1290هـ (جانفي 1874) يلتمس منه تقديم يد المساعدة إلى محمد الكبلوتي.

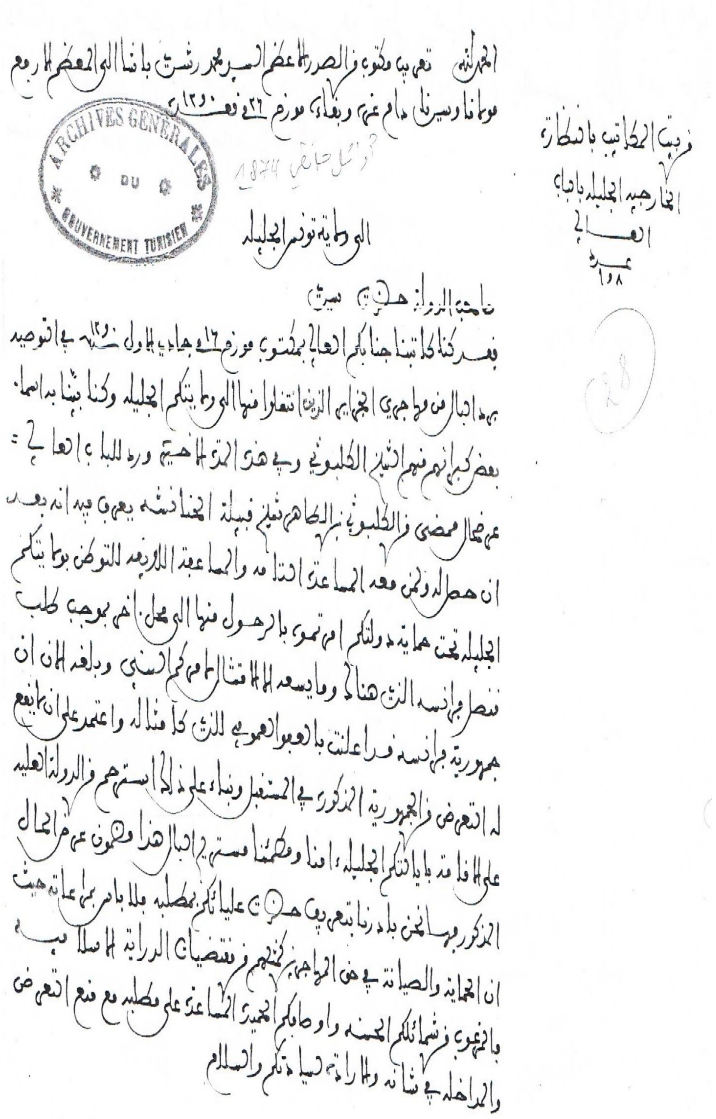

63 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الحافظة 212، الملف 240، الوثيقة رقم 28.

قائمة المصادر والمراجع:

1-الأرشيف:

-الأرشيف الوطني التونسي، السلسة التاريخية:

-الحافظة 212، الملف 240،

- الحافظة 78، الملف 929،

- الحافظة 212، الملف 240،

- الحافظة 185، الملف 1050 مكرر،

-A.M.G, série H229,

- A.O.M, série F80. 506,

- A.O.M, 6H33,

- A.O.M, 2H60,

- A.O.M, 1KK 163,

- A.O.M, 2H68,

- A.O.M, 36K29,

- A.O.M, 20KK45,

- I.S.H.T.C, A.O.M, Série 25H, Bobine A26, Carton 25H18

- I.S.H.T.C, Archives du ministère des relations extérieures, Paris, France, affaires diverses politiques, dossier unique, bobine 520,

2-المصادر والمراجع باللغة العربية:

- محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، الجزء الثالث، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، **1978**.

3-المصادر والمراجع باللغة الفرنسية:

- Abdeljelil Temimi, le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey 1830-1837, presses de la société tunisienne des arts graphiques Tunis, Tunisie, 1978, voir les pièces justificatives et annexes, document n°9 : lettre en arabe des chefs constantinois et de Hadj Ahmed à la Sublime porte en date du 16 septembre 1835.
- André Nouschi, Correspondance du docteur A.Vital avec Ismail Urbain (1845-1874), Paris, France, 1959.
- Capitaine Maitrot, Bône Militaire, 44 siècles de luttes, Bône, 1912.

- Charles-André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine. La conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), éditions Casbah, Alger, Algérie, 2005.
- Ernest Mercier, les deux sièges de constantine (1830-1837), imprimerie libraire L. poulet, Constantine, 1896.
- H'sen Derdour, Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, tome 2, les presses de Dar El Houda, Ain M'lila, Algérie, 2004.
- L.Charles Féraud : « Notes sur un collection d'autographes arabes de l'ancien ministre de France au Maroc », in Revue Africaine, n° 58, Année 1914.
- L.Charles Féraud, « Les Harar Seigneurs des Hanancha. Études Historiques sur la Province de Constantine », in Revue Africaine n° 18 , Année 1874.
- Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Paris, France, 1891.
- Mouloud Gaid, Mokrani, Éditions Andalouses, Alger, Algérie, 1993.
- Roger Germain, la politique indigène de Bugeaud, Éditions la rose, Paris V, France, 1955.